(1) التَّفسِيرِ بمعْهُودِ البيَانِ النَّبويِّ :

د.مفتاح علي محسن
أستاذ مساعد / تفسير القرآن وعلومه
كلية أصول الدين بالجامعة الأسمرية الإسلامية – ليبيا.
m.mohsen@asmarya.edu.ly

(1) ملخص البحث باللغة العربية :

تهدف هده الدراسة إلى استقراء المنهج النبوي في التفسير ،واستجلاء الأصول التي اعتمدها – صلى الله عليه وسلم – والأسس التي سار عليها في بيانه لمعاني القرآن الكريم واستخراج حكمه واستنباط مقاصده ؛ لرسم منهج علمي لتوظيف هدي المصطفى– صلى الله عليه وسلم – في بيان القرآن الكريم .

(2) Research summary in English:

This study aims to extrapolate the prophetic approach to interpretation, and clarify the principles that he adopted - may God bless him and grant him peace - and the foundations he used in his statement of the meanings of the Noble Qur'an and extract his wisdom and derive his intentions to draw a scientific method to employ the guidance of Mustafa - may God bless him and grant him peace - in the statement of the Noble Qur'an.

(3) الكلمات المفتاحية : أسس – التفسير – البيان – السنة – النبوي – معهود – منهج .

(*) التفسير بمعهود البيان النبوي :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين : سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن أجل كلام بعد كلام الله – سبحانه وتعالى – وأحسن الحديث بين أيدينا بعد القرآن الكريم ؛ ما نطق به أفضل الخلق وخاتم النبيين : حديث المصطفى – صلى الله عليه وسلم – لا يمازجه هوى ، ولا تخالطه همزات الشياطين ؛ عصمه – سبحانه وتعالى – وحفظه بحفظ الذكر ؛ قال – تعالى – : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] ، والسنة النبوية المطهرة هي بيان الذكر ، يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] ؛ فكان حفظها ودب الدخيل عنها والمفترى عليها ؛ من تمام حفظ الذكر ؛ ولأن بيانه – صلى الله عليه وسلم – قطع بمراده – سبحانه وتعالى – من كلامه ؛ كان السير على نهجه و الاقتداء بسنته ؛ كمال العبادة وغاية الرضا ؛ يقول المولى – عز وجل – : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] ؛ فلا إيمان إلا باتباعه والاتساء به ، ولا نجاة إلا بالاعتصام بسنته والعض عليها ؛ يقول – صلى الله عليه وسلم – : " لن يستكمل مؤمن إيمانه ؛ حتى يكون هواه تبعا لما جئتكم به " [4] ، ولا سبيل إلى دلك إلا بفقه القرآن الكريم على مراده – سبحانه وتعالى – واستنباط حكمه ، والوقوف على مقاصده وتحقيقها ، على نهج المصطفى– صلى الله عليه وسلم– توقيا للزلل وصونا من الانحراف.

(*) مشكلة البحث :

تنطلق من أن السنة النبوية هي بيان القرآن الكريم ، وقد أحالنا القرآن الكريم في أكثر من موضع على السنة النبوية المطهرة لبيان ما غمض وتفصيل ما أوجز وتفسير ما أشكل ؛ فتأكد أن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – هو المفسر الأول ؛ وتفسيره قطع بالمعنى المراد ؛ لكن التفسيرات المروية عنه – صلى الله عليه وسلم – الواردة مورد اتفسير لا تفسر كل القرآن ، وإنما هي مواضع قليلة ؛ بل معدودة ؛ ولا تفسر إلا جزءا يسيرا من القرآن الكريم ؛ في حين أن كتب السنة التي نقلت لنا هديه – صلى الله عليه وسلم – بحر زخار غصت به المكتبات قبل المجلدات ؛ نقلت إلينا بدقة متناهية وتفصيل دقيق عبادته ودعوته وجهاده وحياته – صلى الله عليه وسلم – فوجب النظر والبحث في هذه المواضع المعدودة ، وتتبع سنته –صلى الله عليه وسلم – لاستنباط المنهج الصحيح في تفسير القرآن الكريم على مراده–سبحانه وتعالى – وبوجه أوضح :تبحث هذه الدراسة في وضع أسس المنهج الصحيح في توظيف السنة النبوية المطهرة لبيان القرآن الكريم ، والإجابة على هذا السؤال :

---

(1) سورة الحجر ، الآية : 9

(2) سورة النحل ، الآية : 44

(3) سورة آل عمران ، الآية : 31

(4) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى – باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس في موضع النص ؛ حديث:147، وفي سنده نعيم بن حماد،وقد ضعفه أبو داوود والنسائي ، وضعفه الألباني في المشكاة حديث رقم : 176، وصححه النووي ؛ فقال : " حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح" ، وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه للأربعين : " حديث حسن صحيح ، وسبب تحسينه أنه في معنى الآية ، وهي قوله – جل وعلا – : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (سورة النساء ، الآية : 65) وقال الشيخ ابن عثيمين في شرحه : " صححه النووي وغيره ، وضعفه جماعة من أهل العلم ،منهم ابن رجب في كتابه : جامع العلوم والحكم ، ولكن معناه صحيح " ، انظر : القول المفيد على كتاب التوحيد بشرح الشيخ ابن عثيمين2/285.

ما هي أصول وأسس المنهج العلمي الصحيح في بيان القرآن الكريم بسنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ؟.

(*) أهداف الدراسة :

1- فهم صحيح للأصلين المعصومين ؛ الذين يقوم عليهما دين الإسلام : " الكتاب والسنة " .

2- تدبر القرآن الكريم وتأمل معانيه ، والغوص فيها واستخراج درره ، واستنباط حكمه ومقاصده فهما صحيحا مستنيرا بهدي السنة النبوية المطهرة .

3- تلمس واستجلاء المنهج النبوي في بيان القرآن الكريم ، ورسم معالمه وتعيين أصوله وأسسه وقواعده .

(*) الدراسات السابقة :

منها ما تناول التفسير النبوي ؛ فشملت ما ورد مورد التفسير وما كان في معنى النص الكريم من الأحاديث الشريفة ، لكنها لم تتوسع في دراسة منهج بيان السنة المطهرة للقرآن الكريم ، ومن هذه الدراسات : التفسير النبوي : دراسة تأصيلية مع دراسة حديثية لأحاديث التفسير النبوي الصريح ؛ لخالد عبد الرحمن الباتلي ، ومنها ما تناول البيان النبوي على عمومه ككتاب : البيان النبوي لمحمد رجب البيومي ، ومنها ما تناول جانب البلاغة ؛ ككتاب : الحديث الشريف والبلاغة النبوية لمحمد سعيد البوطي .

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة ؛ فهو المنهج الاستقرائي التحليلي الاستنباطي ، وذلك باستقراء الآيات الكريمة ومعانيها في التفاسير وتحليلها ، والسنة النبوية وشروحها ، واستنباط الاعتلاق بينهما .

أما الصعوبات فهي ندرة الدراسات حول الموضوع ؛ حيث جاءت مباحثه منثورة بين أقوال المفسرين في تفاسيرهم ، والدراسات المتعلقة بأصول وقواعد وأسس التفسير ؛ ولم تفرد دراسة خاصة به .

(*) **خطة البحث** : تتألف خطة البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة .

- مقدمة : بينت مشكلة البحث وأهدافه والصعوبات والدراسات السابقة .

– المبحث الأول :البيان النبوي ، وفيه ثلاثة مطالب : خصائص البيان النبوي ، وأهمية البيان النبوي ، وأسس منهج البيان النبوي .

– المبحث الثاني : معهود البيان النبوي : وفيه ثلاثة مطالب :

– المطلب الأول :البيان النبوي ومعهود البيان النبوي .

المطلب الثاني :منهج استنباط معهود البيان النبوي .

المطلب الثالث : أنواع معهود البيان النبوي .

– خاتمة :تضمنت النتائج والتوصيات .

(*) المبحث الأول : البيان النبوي :

البيان النبوي هو المنهج الذي ربى عليه – صلى الله عليه وسلم – الرعيل الأول ، الذين حملوا مشعل الهداية إلى الله إلى كل أصقاع المعمورة ، و بلغ ذكرهم عنان السماء ، فكانوا خير خلف لخير سلف ، وهو كل الانفعالات التي اختلفت وجوهها وصورها ؛ لشرح معاني وترجمة مقاصد رسالته – صلى الله عليه وسلم – ، هو المنهج الحق والأنموذج المثال في العبودية لله – سبحانه وتعالى – والدعوة إليه [5].

– المطلب الأول : خصائص البيان النبوي :

لقد فهم – صلى الله عليه وسلم – القرآن جملة وتفصيلا ؛ إذ هو المبين له ؛ فبيانه مهمته التي أوكلها إليه – سبحانه وتعالى – : في أسلوبه ، في عباراته وكلماته ، في إشاراته وتلميحاته ، في سكناته وحركاته ، في تعبيرات وجهه الكريم – صلى الله عليه وسلم – ؛ ذلك أن به – سبحانه وتعالى – زكى سجاياه وخصاله ؛ فقال – تبارك وتعالى – : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [6] ، وزكى لسانه فقال – عز وجل – : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [7] ؛ فجعله معصوما كالوحي ، فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [8] ؛ تقول عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – في وصفه – صلى الله عليه وسلم – : " كان خلقه القرآن " [9] ؛ لسانه مستوعب للمعاني ؛ جامع للمقاصد ؛ ويقول – صلى الله عليه وسلم – منبها إلى فضل ربه في فصاحة لسانه وعلو بيانه : " بعثت بجوامع الكلم " [10] ، ويقول – عليه الصلاة والسلام – مبينا عظم سنته ومؤكدا على التمسك بها : " ألا إني أوتيت الكتاب ، ومثله معه " [11] ، وهو ما شهد به أساطين الفصاحة من خصومه ، وأكده فحول البلاغة من أعدائه قبل أتباعه ، يقول الجاحظ في وصف كلام المصطفى – صلى الله عليه وسلم – : " هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال – تعالى – : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [12]" [13] ، لقد عاب التشدق والتفيهق ؛ فقال – عليه الصلاة

---

(5) ينظر : في مفهوم البيان النبوي لمونية الطراز 1.

(6) سورة القلم ، الآية :4

(7) سورة النجم ، الآية : 3

(8) سورة النجم ، الآية:4

(9) رواه أحمد في مسنده – مسند الأنصار – الملحق المستدرك من مسند الأنصار – حديث السيدة عائشة – رضي الله عنها –،حديث :24766 .

(10) روى البخاري في صحيحه – كتاب التعبير – باب المفاتيح في اليد – حديث :6629 : أن أبا هريرة ، قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم –يقول : " بعثت بجوامع الكلم ،ونصرت بالرعب ، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي " .

(11) رواه أبو داوود في سننه – كتاب السنة – باب في لزوم السنة – حديث :4009.

(12) سورة ص ، الآية :86

والسلام – : " وإن أبغضكم إلى الله ، وأبعدكم مني : الثرثارون ، المتفيهقون ، المتشدقون " [14] ، احتضن قلبه اليقين ،وامتزجت روحه بالقرآن ؛ فحفت فاه الحكمة ، واكتنف لسانه البرهان ؛ فهجر الغريب والحوشي ، وتنزه عن الهجين والسوقي ، وانقطع عن الخليع والماجن ، وافترق عن المفترى والأشر ، فلا نطق إلا بحكم جامعة ، ولا استند إلا لحجج دامغة ، ولا دل إلا على مقاصد وغايات سامية ؛ كلامه كمال الكلام الإنساني ، وتمام البيان البشري ؛ لا يرتقي لمقامه غيره ، ولا يبلغ درجته سواه ؛ مهما اجتهد و جهد دربة وعلما ؛ ذلك أن روافد هـ ذا التمام والكمال ؛ خصها – سبحانه وتعالى – بأمور ، ومازها بأمارات ، فانفردت بما لا يشاركه فيها غيره ؛ منها :

1 أن معلمه وملهمه هو ربه – سبحانه وتعالى– حفته بالرعاية ، وحفظ قلبه من الهوى والوساوس ، وصان فؤاده من الميل إلى الفتن ، والانجراف في مزالق الضلال ؛ يقول الحق – تبارك وتعالى – مبينا فضله ونعمته : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ [15] ، ويقول – عز وجل – مذكرا هذا الحفظ : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ [16] ويقول – سبحانه وتعالى – منبها إلى هذه الصيانة : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [17] وكان من تمام رعاية ربه – سبحانه وتعالى – وحفظه له ؛ أن علمه علما وآتاه حكمة ؛ لا يدانيه فيهما أحد ؛ حتى أنه – عز وجل – وصفهما بالفضل العظيم ؛ يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [18] وهذا من لوازم مهمته – صلى الله عليه وسلم– ألا وهي التبليغ ؛ فلا يمل سماع كلامه ، ولا يعجز عن جواب ، ولا يقصر في دفاع ، قوله حجة ودليله برهان وبلاغته سلطان ، لا سبيل لغيره من العرب لبلوغ مقامه ؛ فضلا عن سواهم [19] .

2 أن الله – عز وجل – قد وهبه فطرة قوية مستمرة وسليقة متنوعة جامعة ؛ جعلته يتربع على عرش اللغة ؛ متمكنا من مفرداتها ، سائسا لأساليبها ؛ يديرها ويصرفها كيف يشاء ؛ على نحو ألفه أساطين الفصاحة وفحول البلاغة ؛ لكنهم لم يحيطوا به ؛ أدركوا معانيه ، وخفي عليهم نهج إبداعه ؛ ذلك أنه ليس عن دربة ومزاولة ،

(13) البيان والتبيين للجاحظ5/2
(14) رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب البر والإحسان – باب حسن الخلق – ذكر البيان بأن من أحب العباد إلى الله ، حديث :483 .
(15) سورة الإسراء ، الآية :86
(16) سورة الإسراء ، الآية :73
(17) سورة القلم ، الآية :9
(18) سورة النساء ، الآية :113
(19) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي 283

وإنما ينبثق عن نفس جامعة ، وذهن وقاد ، وبصيرة نافذة ؛ اصطفاها – سبحانه وتعالى – لتكون سفارة مبلغة لعباده كافة ؛ على تنوع ثقافاتهم ، واختلاف ألسنتهم ؛ إنسهم وجنهم ، عامهم وخاصهم ، رباها – سبحانه وتعالى – لتكون رحمته بهم جميعا [20] .

3 أنه كما تقلب بفضله – سبحانه وتعالى – في أطهر الأرحام ؛ تشرب البيان من أفصح القبائل ؛ فمولده في بني هاشم ، وأخواله بني زهرة ، ورضاعته في سعد بن بكر ، وصباه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، وهجرته إلى بني عمرو ؛ فحاز بهذا تمام الفصاحة و منتهاها ، و كمال البلاغة ومرتقاها [21] .

4 أنه كما حباه ربه – سبحانه وتعالى – بصفات خُلقية عظيمة ؛ هي منتهى كمال الإنسانية ، وإمامة الصفوة من خلقه – عليهم السلام – ؛ حباه بصفات خَلقية جسدية ؛ هي أنموذج التمام البشري ؛ أضفت على فصاحته حسنا ، وعلى أسلوبه روعة ، وعلى مقصده جمالا ؛ فقد كان – صلى الله عليه وسلم – ضليع الفم ؛ يستعمل جميع فمه ؛ إذا تكلم ؛ وقد كانت العرب تتمادح به ذه الصفة ؛ لأنها تحقق مخارج الحروف ، وجهارة الأداء ، وه ي أدل على امتلاء الكلام ، ولقد كان – صلى الله عليه وسلم – خاليا من عيوب النطق الخَلقية ، حسن الصوت : عباراته متساوية خفيفة معتدلة ، موافقة لطبيعة اللغة العربية التي تقتضي موسيقاها الخفة والتساوي والاعتدال [22] .

5 كان – صلى الله عليه وسلم – لا يتكلم لغير حاجة ؛ فلا فضول ولا تقصير ؛ مراعيا لمقتضى الحال ، يوصي كل مخاطب بما يصلح لحاله ، متخيراً الوقت المناسب ؛ فيضفي به ذه المراعاة خصوصية زائدة على الأصل المراد ، يقول ابن مسعود – رضي الله عنه – في وصف نهج أسلوبه : " وإني أتخولكم بالموعظة ،كما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يتخولنا بها ؛ مخافة السآمة علينا " [23] .

6 كان كلامه – صلى الله عليه وسلم – يوجز المعاني الكثيرة في درر قليلة ؛ واضحا بينا مقتصرا من غير إخلال ولا تقصير ؛ يكرر الكلمة ؛ إذا لم تسمع ؛ معرض عن القبيح ؛ يكني عند الاضطرار ، فصيح متخير للفظ ، منتخل للأسلوب ؛ تنتظم عباراته حتى تكون متناسبة المعاني ؛ متشاكلة الأطراف ؛ متناسبة المقاصد والأغراض ؛ لا ركاكة ولا تكلف ؛ تقول أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – في فضل كلامه – صلى الله

(20) في الحديث الشريف والبلاغة النبوية لمحمد سعيد البوطي 55

(21) جوانب من البلاغة النبوية لسارة العتبي ص :2

(22) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي 295.

(23) رواه البخاري في صحيحه – كتاب العلم – باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة – حديث :70

عليه وسلم – عن كلام سواه : " ما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسرد سردكم هذا ، ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل ، يحفظه من جلس إليه "[24] [25] .

7 وهبه ربه – سبحانه وتعالى – ملكة تامة ، ومهارة كاملة في الأسلوب والتأثير ؛ إيماءاته وحركاته وسكناته غاية البراعة في الكشف عن المعاني والبيان ، وتحقيق المقاصد والغايات ؛ نهجه منتهى الإرشاد إلى الحق والفضيلة ، الأنموذج الكامل للاتساء ، والمثال الدليل إلى الطريق المستقيم ؛ حتى تمدحه ربه – سبحانه وتعالى – بقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[26] ووصف نفسه بفضل ربه فقال : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع "[27] .

لكنه مع علو منزلة أسلوبه بيانا ، وشرف كلامه فصاحة عن سواه ؛ لا يقارن بكلام الرحمن – سبحانه وتعالى – وإلا لوجد أصحاب الشبهات مغمزا في القرآن الكريم ، ولقالوا هو من اختلاقه ؛ فكان علوه عن كلامهم ؛ تبعا لعجزهم عن تحدي القرآن الكريم ، ولقد أشار البوطي – رحمه الله – إلى هذا المعنى ؛ مبينا أن البلاغة النبوية هي التفات إلى أنموذج سام في الكلام العربي الفصيح البليغ ؛ تفرد به – صلى الله عليه وسلم – ، وهو امتداد للحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، والكشف عن دلائله ؛ ذلك أنه بيانه وتفصيله ؛ مشيرا إلى أن القرآن الكريم وصل إلينا من ذات الطريق التي وصل إلينا منها الحديث النبوي الشريف ؛ ومنبها إلى أنه لو كان القرآن الكريم في طوق البشر ؛ لاقتضى أن تجد تقاربا بين القرآن الكريم والحديث الشريف ؛ لكنه امتاز عن غيره فصاحة وبلاغة ، وانفرد أسلوبا ومقصدا ؛ ذلك أنه شرع وبيان وتفصيل لكلام الرحمن القرآن الكريم[28] .

ولا مراء في أن فهم القرآن الكريم على مراده – سبحانه وتعالى – لا يتأتى إلا بالبحث في السنة النبوية التي هي بيانه والتي أحالنا القرآن الكريم عليها في أكثر من موضع ، وتلمس المنهج النبوي في التفسير في تفاصيل حياته – صلى الله عليه وسلم – في أقواله وأفعاله وتقريراته ، في عمومها ودقائقها ، وتدبرها ، واستنباط غاياتها ومقاصدها ، وارتباطها بمعاني الآيات الكريمة ، وتآلفها مع مقاصدها ، واكتنافها لغاياتها ، ولقد أدرك الصحابة – رضوان الله عليهم – وعلماء الأمة أهمية هدي المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في فهم القرآن الكريم ؛ فجعلوه المصدر الأول في فهم مراده – سبحانه وتعالى – من كلامه ، وتطبيق أحكامه ، فصدروا بها أقوالهم ،

---

(24) رواه الترمذي في سننه الجامع الصحيح – الذبائح – أبواب المناقب عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باب في كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – حديث :3657 ، وقال : " هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث الزهري " وقد رواه يونس بن يزيد ،عن الزهري "

(25) جوانب من البلاغة النبوية لسارة العتبي ص :3

(26) سورة القلم ، الآية :4

(27) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الفضائل – باب تفضيل نبينا – صلى الله عليه وسلم – على جميع الخلائق – حديث :4321 .

(28) في الحديث الشريف والبلاغة النبوية 43/ 46.

ووشحوا بها اختياراتهم ؛ يقول – صلى الله عليه وسلم – مرشدا إلى أهمية سنته في فهم القرآن الكريم ، ومحذرا من الاعراض أو الاستغناء عنها : " إني أوتيت الكتاب وما يعدله ، يوشك شبعان على أريكته أن يقول : بيني وبينكم هذا الكتاب ، فما كان فيه من حلال ؛ أحللناه ، وما كان فيه من حرام ؛ حرمناه ، ألا وإنه ليس كذلك " [29] ، وإن كان ابن تيمية – رحمه الله – قد جعل السنة المطهرة ثانية الطرق الأحسن في التفسير ؛ بعد تفسير القرآن بالقرآن [30]؛ فإنما عنى وقصد اجتهاد ورأي المفسر في الكشف عن اعتلاقها بالقرآن الكريم ؛ أما ما ورد مرها مورد التفسير ؛ فهذا لا يصار إلى غيره ؛ ولهذا خالف ابن جرير الطبري مجاهداً في اختيار تفسير القرآن بالقرآن في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [31] بقوله – تعالى – : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [32] ؛ فقال : " وأولى التأويلين بالصواب : قول من قال : ثم الطريق ؛ وهو الخروج من بطن أمه يسره .....؛ لأنه أشبهها بظاهر الآية " [33] ، وأما وصف ابن تيمية لتفسير القرآن بالقرآن بأنه أحسن الطرق في التفسير ؛ فلأن تفسير القرآن بالقرآن هو تفسير بالصحيح المطلق من المأثور ؛ أما السنة ففيها الصحيح والحسن والشاذ والمنكر والضعيف والموضوع ، لهذا جعل ابن تيمية – رحمه الله – السنة ثانية الطرق الأحسن في التفسير .

–المطلب الثاني : أهمية البيان النبوي :

امتازت السنة المطهرة بخصائص انفردت بها عن غيرها من المصادر ؛ جعلتها وحيا يوحى ؛ بها يكشف ما غمض ، ويفصل ما أوجز ؛ ويبين ما أشكل ؛ بل إنه لا سبيل لبيان الشرع بمعزل عنها ؛ فقد يحجب المعنى في بعض المواضع ؛ فلا يكشف إلا بالإحاطة بها والرجوع إليها ؛ وإن العدول عنها أو إغفالها ؛ يجر إلى الا نحراف عن الجادة السوية ، والزلل عن مراده – سبحانه وتعالى – من كلامه ؛ والتقول عليه ، وأهم هذه الخصائص التي انفردت بها السنة المطهرة في بيان القرآن الكريم :

1 –أنها السبيل إلى القطع بالمعنى المراد من كلامه – سبحانه وتعالى – : فلا يصار إلى غيرها ؛ إذا ثبتت ، وكانت نصا في التفسير ؛ وهي مرجحة لما وافقها من اجتهادات ؛ إذا تعلقت بالنص الكريم ، ولو بوجه بعيد ؛ بل إن الضعيف منها كما قال الإمام أحمد بن حنبل مقدم على التفسير بالرأي [34] .

---

(29) رواه ابن حبان في صحيحه–ذكر الخبر المصرح بأن سنن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – حديث :12.

(30) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية93.

(31) سورة عبس ، الآية :20.

(32) سورة الإنسان ، الآية :3

(33) جامع البيان لابن جرير الطبري 113/24.

(34) المحلى لابن حزم ،قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين بن علي الحربي 192/191.

2 -احتياج القرآن الكريم إليها ، ذلك أنها تفسره وتفصله وتبينه ؛ وليس القرآن مبينا لها ؛ ذلك أنها مبينة بنفسها ؛ فهي لا تصل حد القرآن الكريم في الإيجاز والإعجاز ؛ روي عن مكحول : " القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن " [35] ، وروي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال : " السنة قاضية على القرآن ، وليس القرآن بقاض على السنة " [36] .

3 -فهم معصوم من الزلل ، حاكمة ضابطة لأصول التفسير ، وقواعده ؛ بها تعرف المصادر ، وبها تستبين الطريق إلى فهم مراده – سبحانه وتعالى – وبها تصحح المرويات ، وتعتمد اتجاهات المفسرين ، وترجح اجتهاداتهم ، وبها يستبعد الضعيف من الروايات والبعيد من التأويلات ، ويرد الدخيل والموضوع .

4 -أصل معتمد من أصول التفسير ؛ لأنها بيان القرآن الكريم ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [37] ولا يتصور فهم فوق فهم صاحبها – صلى الله عليه وسلم – ؛ ذلك أن القرآن الكريم جاء خطابا له ؛ مصورا لأحواله ، واصفا لسريرته ، مسليا له ؛ واعداً بما تتوق إليه نفسه ، ويتشوق إليه قلبه ؛ يقول – سبحانه وتعالى – مخبرا عما يعتصر قلبه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [38] ، ويقول – عز وجل – واصفا سريرته : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [39] ، ويقول – تبارك وتعالى – واصفا ما تتوق إليه نفسه في حرصه على هداية قومه : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [40] ، ويقول – سبحانه وتعالى – في وصف شدة وقع ما يلاقيه منهم في نفسه : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ [41] ، ويقول – سبحانه –واصفا ما تتشوق إليه نفسه : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [42] .

---

(35) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 67/1.

(36) رواه الدارمي في سننه –باب السنة قاضية على كتاب الله – تعالى– حديث :610 ..

(37) سورة النحل ، الآية :44

(38) سورة الأنعام ، الآية :33

(39) سورة الأحزاب ، الآية :37

(40) سورة الأنعام ، الآية :35

(41) سورة الإسراء ، الآية :73

(42) سورة البقرة ، الآية :144

5 -بيان للأحكام الشرعية ، والغيبيات التي لا مجال للرأي فيها ، فلا تستقى من غيرها ، ولا تحقق عن غير الخبر فيها ؛ ذلك أنه لا اطلاع على كيفيتها ، ولا معاينة لكنهها لغيره – صلى الله عليه وسلم – .

-المطلب الثالث : أسس منهج البيان النبوي للقرآن الكريم :

روي عن جبير بن مطعم – رضي الله عنه – أنه قال : " سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ في المغرب بسورة الطور " ؛ فلما سمعته يقرأ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴿35﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴿36﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴿37﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [43] كاد قلبي يطير " [44] ، وهذا لقوة تأثير تلاوته – صلى الله عليه وسلم – في سامعيه ، يقول الدكتور محمد بيومي معللا حالة الصحابي الكريم : " وبلاغة الترتيل لدى محمد – صلى الله عليه وسلم – نابعة من قوة يقينه ، وشدة إيمانه بما يقرأ " [45] ؛ ذلك أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يتلوه تلاوة منبثقة عن تدبر وتأمل عميقين ، وفقه لمعانيه الخفية ، وإدراك لدلائله العميقة التي لا يلمحها سواه ، ولهذا كان – صلى الله عليه وسلم – دائم الخشوع ، غزير الدمع عند تلاوته أو سماعه ؛ فقد تشربته روحه ؛ وامتزج به خلقه ؛ واستوعبه قلبه ؛ فكان هديه البيان التام ، والمنهج المثال في فهم القرآن الكريم على مراده – سبحانه وتعالى – .

ولما كان منهجه في التفسير هو الطريق المستقيم إلى فهم مراده – سبحانه وتعالى – و المنهج الصحيح والأنموذج والأمثل لمن أراد التدبر والتفكر والاستنباط ، المعصوم من العوج ، البعيد عن الزلل ، المفترق عن الضلال ؛ كان لزاما علينا البحث في معالم تفسيره – صلى الله عليه وسلم – وتحسس الأسس التي سار عليها ، والأدوات التي أخذ بها ، والأصول التي استقى منها ، والقواعد التي اعتمدها في كشف معاني كلام ربه ، وإدراك دلائله ، واستنباط حكمه ، وبيان مقاصده ؛ وذلك للوقوف على معالم المنهج المثال في بيان كلام رب العالمين ، والباحث المتأمل فيما روي عنه – صلى الله عليه وسلم – يرى أنه ارتكز على قواعد رصينة ، وقام على أسس متينة ؛ تنوعت فيه المصادر والوسائل والطرق ، تآزرت على الأغراض ، وتآلفت في الغايات ؛ فكانت منتهى البيان ، وغاية الجودة في التربية والبيان والدعوة ، وأهم هذه الأسس:

1 -الجمع بين أصالة المصدر ، وجودة الأسلوب : كان بيانه – صلى الله عليه وسلم – الأنموذج والمثال والقدوة في التلقي والإلقاء ؛ وذلك هو روح الأمانة والتبليغ ، وحكمة النبوة ، وكما كان – صلى الله عليه وسلم

(43) سورة الطور .

(44) رواه ابن ماجة في سننه – كتاب إقامة الصلاة – باب القراءة في صلاة المغرب – حديث:830

(45) البيان النبوي لمحمد بيومي 278 .

– حريصا على تلقيه ؛ كان حريصا على تبليغه ؛ يقول المولى – عز وجل – في وصف حرصه على التلقي :﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ:﴿16﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [46] وفي حرصه على تبليغه ؛ يقول : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[47] ؛ جمع أسلوبه بين الإيجاز والبيان ، لا إطناب ممل ، ولا اختصار مخل ؛ لا خروج إلى مالا فائدة فيه ؛ ولا استدراك لغيره عليه ، مقتصرٌ على المراد ، مرشدٌ إلى الغاية ، دالٌ على المقصد ، يكتفي أحيانا ببيان المعنى بكلمة واحدة ؛ كقوله في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [48] : " فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضلال " [49] وقد يطنب مراعاة للمقام ؛ كما في وصفه للكوثر [50] ، أو للإبهام في اللفظ المبين للمعنى ؛ كقوله لعائشة – رضي الله عنها – في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿7﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾[51] : " ذاك العرض ؛ يعرضون ، ومن نوقش في الحساب ؛ هلك " [52].

2 –تفسير القرآن بالقرآن: أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل في قوله – تعالى – : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [53] ، وعندما نزل قوله – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[54] قال قوم من الصحابة : يا رسول الله :كيف بمن مات منا ؛ وهو يشربها ، ويأكل الميسر ؛ فنزل البيان في قوله – تعالى – : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ [55] [56] ، وأكد المصطفى–صلى الله عليه وسلم–

(46) سورة القيامة .

(47) سورة النحل ، الآية : 37 .

(48) سورة الفاتحة ، الآية :7

(49) رواه الترمذي في سننه الجامع الصحيح – الذبائح – أبواب تفسير القرآن عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باب : ومن سورة فاتحة الكتاب ، حديث:2959

(50) روى النسائي في السنن الكبرى–سورة الكوثر–حديث: 11257،عن أنس بن مالك،أن رجلا جاء إلى رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فقال:"يا رسول الله،ما الكوثر؟،قال:"نهر أعطانيه ربي في الجنة،هوأشد بياضا من اللبن،وأحلى من العسل،فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر"،قال عمر–رضي الله عنه–:يا رسول الله،إنها لناعمة،قال:"آكلها أنعم منها".

(51) سورة الانشقاق.

(52) رواه البخاري في صحيحه–كتاب تفسير القرآن:سورة الانشقاق–باب:﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾،حديث:4658

(53) سورة القيامة ، الآية :19

(54) سورة المائدة ، الآية : 90

(55) سورة المائدة ، الآية : 93

على هذا الأصل في أكثر من موضع ، منها تفسير الظلم في قوله – تعالى – : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [57] بالشرك ؛ اعتمادا على قوله – تعالى – : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [58] [59] .

3 –مراعاة السياق والوحدة الموضوعية : فأما مراعاته للسياق فتفسيره للألفاظ وفق سياقها ، ومنه تفسير الحساب بالعرض في قوله – تعالى – : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ [60] مع وروده في مواضع أخرى بمعان أخرى ، وأما مراعاته للوحدة الموضوعية للآيات ففي تفسيره لسورة الفاتحة بالحديث القدسي الذي يرويه عن ربه : " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ؛ قال الله – تعالى – : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ؛ قال الله – تعالى – : أثنى علي عبدي ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدني عبدي ، فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ؛ قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؛ قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل " [61] وبين جلي مراعاة المناسبة في السياق والوحدة الموضوعية للسورة ؛ فلم يقتصر على بيان آية ؛ بل نظر إليها نظرة كلية متصلة .

4 –اعتبار قيم الإسلام ومبادئه العريقة والمقاصد العامة للقرآن ؛ وهذا الأساس هو روح الدعوة إلى الله ، والمتتبع لخطبه ومواعظه – صلى الله عليه وسلم – يرى أنه يبرزها في سياق حديثه ؛ منبها إليها ؛ مؤكدا على التمسك بها ؛ فعن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [62] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

(56) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان – سورة المائدة – القول في تأويل قوله – تعالى – : ليس على الذين آمنوا وعملوا – حديث:11387

(57) سورة الأنعام ، الآية : 82

(58) سورة لقمان ،الآية : 13

(59) رواه البخاري في صحيحه – كتاب أحاديث الأنبياء–باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا – حديث:3197

(60) سورة الانشقاق ، الآية : 8

(61) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة – حديث:624

(62) سورة المؤمنون ، الآية : 51

وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [63] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ "[64] .

5 -تنوع أسلوبه – صلى الله عليه وسلم – في البيان ، فإذا أراد أن يبين قيمة من قيم الإسلام ، أو مقصدا من مقاصد القرآن ، أو أمرا غيبيا ؛ ناطه بالنص الكريم الذي يناسبه من كتاب الله ، ولقد نهج المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في هذا طرقا متنوعة ؛ جاءت في منتهى البيان ، وغاية الترسيخ ؛ مراعيا فيه الموقف والمتلقي والقرائن ؛ فقد يبتدر – صلى الله عليه وسلم – البيان ؛كقوله – صلى الله عليه وسلم – : في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾[65] : " مفاتح الغيب خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[66][67] ، و قد يذكر – صلى الله عليه وسلم – المعنى أولا ، ثم يردفه بالنص الكريم ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن في الجنة شجرة ، يسير الراكب في ظلها مائة عام ، لا يقطعها ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [68] " [69] وقد يكون بالتنبيه على الفهم الخطأ والسلوك المجانب ؛ فيستدركه مبينا الصحيح ؛ مستدلا بالنص الكريم الشاهد ؛ كاستدراكه على أبي سعيد بن المعلى – رضي الله عنه – حين دعاه ؛ فلم يستجب ؛ بقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ما منعك أن تأتي ؟ ألم يقل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [70] " [71] وقد يكون بطريقة الدفع للمشاركة و الحث على التفاعل والاجتهاد ؛ كحثه – صلى الله عليه وسلم – أصحابه – رضوان الله عليهم – على البحث في معاني القرآن الكريم ؛ فإذا عجزوا ؛ بين لهم الصحيح ؛ وإن أصابوا ؛ أقرهم وعزز فهمهم الصحيح ، ومن أمثلة بيانه في حال عجزهم قوله – صلى الله عليه وسلم – : " من يخبرني عن شجرة ؛ مثلها مثل المؤمن ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها....ثم قال – صلى الله

---

(63) سورة البقرة ، الآية : 172

(64) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الزكاة – باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها – حديث:1748

(65) سورة الأنعام ، الآية :59

(66) سورة لقمان ، الآية :34

(67) رواه البخاري في صحيحه – كتاب تفسير القرآن – باب : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ (الأنعام :59) ، حديث :4360

(68) سورة الواقعة ، الآية :30

(69) رواه البخاري في صحيحه – كتاب تفسير القرآن – سورة الواقعة – باب قوله : ﴿ وظل ممدود ﴾ ، حديث :4602 "

(70) سورة الأنفال ، الآية :24.

(71) رواه البخاري في صحيحه – كتاب تفسير القرآن – باب:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال24) ، حديث :4379

عليه وسلم – : " هي النخلة " [72] ومن أمثلة إقراره لاجتهادهم ؛ إقراره لاجتهاد عمرو بن العاص – رضي الله عنه – في إمامته للجيش متيمما [73] ؛ استنادا إلى قوله – تعالى – : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [74].

6 –التنبيه والإرشاد إلى أهمية التفسير بالسنة : دعانا القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى طاعة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – واتباع سنته والتمسك بها ، ونبه المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إلى مكانة هذا الأصل في فهم مراده – سبحانه وتعالى – في أحاديث كثيرة ؛ تأكيدا لدعوة القرآن الكريم ، منها ما كان ترغيبا ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إني قد تركت فيكم شيئين ؛ لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض " [75] ومنها ما كان تحذيرا وترهيبا من الإعراض والحيد عنها ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إني أوتيت الكتاب وما يعدله ، يوشك شبعان على أريكته ؛ أن يقول : بيني وبينكم هذا الكتاب ، فما كان فيه من حلال ؛ أحللناه ، وما كان فيه من حرام ؛ حرمناه ، ألا وإنه ليس كذلك " [76] .

7 –الإشارة إلى أهمية فهم و تفسير الصحابة – رضوان الله عليهم – : وهو المفهوم والمستنبط من الآيات الكريم والأحاديث الشريفة الدالة على فضلهم ، وإقراره – صلى الله عليه وسلم – لأقوالهم واجتهاداتهم في تفسير كلام ربهم – سبحانه وتعالى – كإقراره لاجتهاد عمرو بن العاص – رضي الله عنه – في إمامته للجيش متيمما ؛ حفاظا على نفسه [77] ؛ استنادا لقوله – تعالى – : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [78] وقوله لأبي بن كعب : " والله ؛ ليهنك العلم أبى المنذر " [79] ؛ إقرارا لجوابه بأن آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم ، ولعل تأكيد القرآن الكريم لاجتهادات الصحابة – رضي الله عنه م – تأكيد له ذا

(72) رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب الإيمان – باب ما جاء في صفات المؤمنين – ذكر الإخبار عما يشبه المسلمين من الأشجار ، حديث 243:

(73) روى البخاري في صحيحه – كتاب التيمم – باب : إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت ، أوخاف العطش تيمم : " ويذكر أن عمرو بن العاص : " أجنب في ليلة باردة ، فتيمم وتلا : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ فذكر للنبي – صلى الله عليه وسلم –؛ فلم يعنف "

(74) سورة النساء ، الآية : 29

(75) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين – كتاب العلم – فأما حديث عبد الله بن نمير– حديث :288 .

(76) رواه ابن حبان في صحيحه – ذكر الخبر المصرح بأن : سنن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – حديث:12

(77) الحديث سبق تخريجه ص12

(78) سورة النساء ، الآية :29

(79) رواه مسلم في صحيحه – كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل سورة الكهف – حديث :1384

الأصل ؛ كتأكيد القرآن الكريم لاجتهاد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في قضية أسرى بدر بقوله – تعالى – : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (80) (81) ، وتأكيد اجتهاده في منع الصلاة على المنافقين بقوله – تعالى – : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (82) (83) .

8 –التحذير من التفسير بالرأي المجرد : حث القرآن الكريم في أكثر من موضع على التفكر ، والتدبر في آياته الكريمة ، والاستدلال بها على توحيده – سبحانه وتعالى – وصدق دعوة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وتزكية النفس بها وصولا إلى المنهج الذي ارتضاه – سبحانه وتعالى – وتتحقيق غاية الاستخلاف في أرضه ، ولا شك أن تلمس معالم هذا المنهج وبلوغ هذه الغاية ؛ يقوم على منهج علمي أصيل في فهم كتابه – سبحانه وتعالى – لا بمجرد الرأي ، ولقد جاءت سنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – مؤكدة لهذا الأساس ، وذلك في إقراره – صلى الله عليه وسلم – لاجتهادات صحبه – رضوان الله عليهم – المستندة للأصول ، والقائمة على أسس المنهج الصحيح ، وإنكاره لآرائهم المجردة ، كإقراره لجواب أبي واجتهاد عمرو بن العاص – رضي الله عنه – ، وإنكاره على عدي بن حاتم – رضي الله عنه – في فهمه لقوله – تعالى – : ﴿

---

(80) سورة الأنفال ، الآية :67

(81) روى مسلم في صحيحه – كتاب الجهاد والسير – باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر – حديث : 3396 عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : " فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبي بكر ، وعمر : " ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ " فقال أبو بكر: يا نبي الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ما ترى يا ابن الخطاب ؟ "قلت :لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكني من فلان نسيبا لعمر ، فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء ء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت : يا رسول الله ، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة – شجرة قريبة من نبي الله – صلى الله عليه وسلم – وأنزل الله – عز وجل – : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم

(82) سورة التوبة ، الآية :84

(83) روى البخاري في صحيحه – كتاب الجنائز – باب الكفن في القميص الذي يكف أو لا يكف – حديث :1222، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – : " أن عبد الله بن أبي لما توفي ؛ جاء ابنه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، أعطني قميصك أكفنه فيه ، وصل عليه ، واستغفر له ، فأعطاه النبي – صلى الله عليه وسلم – قميصه ، فقال : " آذني أصلي عليه "، فآذنه ، فلما أراد أن يصلي عليه ؛ جذبه عمر – رضي الله عنه – فقال : أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : " أنا بين خيرتين ، قال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم " فصلى عليه ، فنزلت : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ﴾

وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [84] بوضع عقالين : أسود وأبيض ؛ بقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن وسادك لعريض " [85] بل إنه – صلى الله عليه وسلم – حذر من التفسير بالرأي المجرد الغير مستند للدليل فقال : " من قال في القرآن برأيه ؛ فليتبوأ مقعده من النار " [86].

9 -تنوع طرق بيانه – صلى الله عليه سلم – في كشف المعاني : لقد نهج – صلى الله عليه وسلم – في تفسير كلام ربه – سبحانه وتعالى – طرقا في غاية الإيضاح والترسيخ ؛ مراعيا فيها الموقف التعليمي ؛ منتخبا أنسبها ؛ فتارة تكون بطريقة الإلقاء ؛ كما في خطبه – صلى الله عليه وسلم – التي يقرن فيها الآيات الكريمة بمقاصدها وغاياتها ؛ بأن يذكر المعنى أو الغاية ؛ ثم يردفه بالآية الدالة عليه ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – : " يا أيها الناس ، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا " ثم قرأ قوله – تعالى – : ﴿ كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [87] [88] ، وتارة يكون بطريق المشاركة والتفاعل ؛ كما في بيانه – صلى الله عليه وسلم – لوقت طلوع الشمس من مغربها بقوله : " أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين : ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [89] [90] ، وقد يكون بتصحيح الفهم ؛ كقوله لأبي بكر الصديق – رضي الله عنه – حين سأله : يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [91] ؛ فقال : " رحمك الله يا أبا بكر ، ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست يصيبك اللأواء ؟ فذاك ما تجزون به " [92] ، وقد تكون بطريق تصحيح وتقويم السلوك العملي المشاهد المخالف للقرآن الكريم ؛ كقوله

---

(84) سورة البقرة ، الآية :187

(85) روى أبو داود في سننه – كتاب الصوم – باب وقت السحور – حديث :2015، عن عدي بن حاتم قال :" لما نزلت هذه الآية : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾(البقرة،الآية:187)قال : أخذت عقالا أبيض وعقالا أسود ، فوضعتهما تحت وسادتي ، فنظرت فلم أتبين ، فذكرت ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فضحك فقال : " إن وسادك لعريض طويل ، إنما هو الليل والنهار ".

(86) رواه الترمذي في سننه الجامع الصحيح – أبواب تفسير القرآن عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ، حديث:2952

(87) سورة الأعراف ، الآية : 29

(88) رواه البخاري في صحيحه – كتاب تفسير القرآن – باب وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم – حديث :4358

(89) سورة الأنعام ، الآية :158.

(90) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الإيمان – باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان – حديث :254

(91) سورة النساء ، الآية :123

(92) رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرا – باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض – ذكر البيان بأن الله – جل وعلا – قد يجازي المسلم على سيئاته ، حديث :2978.

لأبي سعيد بن المعلى : " ما منعك أن تأتيني ؟ " فقال : كنت أصلي ، فقال – صلى الله عليه وسلم – : " ألم يقل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[93] ، ثم قال : " ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد " فذهب النبي – صلى الله عليه وسلم – ليخرج من المسجد ؛ فذكره أبو سعيد ؛ فقال : ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[94] هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته "[95] ، وقد يكون بالحث على البحث والاجتهاد ؛ ثم إقرار الصحيح ؛ كحثه على الاجتهاد في قوله : " من سن في الإسلام سنة حسنة ؛ فعمل بها بعده ؛ كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شيء "[96] وإقراره لاجتهاد الصحابيين في تيممهما خوفا من خروج الوقت ؛ رغم اختلافهما في العمل ؛ إذ تيمما صعيدا طيبا ، فصليا ، ثم وجدا الماء بعد في الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة بوضوء ، ولم يعد الآخر ؛ ثم أتيا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكرا ذلك ؛ فقال – صلى الله عليه وسلم – للذي لم يعد : " أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك " ، وقال للذي توضأ وأعاد : " لك الأجر مرتين "[97].

10 -تنوع أساليبه– صلى الله عليه وسلم – في البيان : فتارة يكون بأسلوب السؤال ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – : " أتدرون ما الكوثر ؟ " فقال الصحابة – رضي الله عنهم – : الله ورسوله أعلم ، قال : " فإنه نهر وعدنيه ربي– عز وجل – عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم "[98] وقد يكون بأسلوب التشويق ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ألا أخبركم بشيء ؛ إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا ؛ دعا به ؛ يفرج عنه ؛ فقيل له : بلى ، فقال : دعاء ذي النون : ﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[99] ، وقد يكون بأسلوب التطبيق العملي كبيانه – صلى الله عليه وسلم – لآيات الأحكام المتعلقة بالصيام والحج والزكاة والصلاة[100] ، وقد يكون بأسلوب التحذير كبيانه – صلى الله عليه وسلم – للعهد الوارد في قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً

(93) سورة الأنفال ، الآية: 24

(94)سورة الفاتحة،الآية:2

(95) رواه البخاري في صحيحه–كتاب تفسير القرآن–باب قوله:ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم،حديث:4433

(96) رواه مسلم في صحيحه–كتاب العلم–باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى–حديث:4937.

(97) رواه الدارمي في سننه–كتاب الطهارة–باب التيمم – حديث:777 .

(98) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الصلاة – باب حجة من قال:البسملة آية من أول كل سورة – حديث:635.

(99) سورة الأنبياء ،الآية :78

(100) روى البخاري في صحيحه – كتاب الأذان – باب الأذان للمسافر – حديث :613

عن مالك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم .

أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [101] أنه اليمين الكاذبة [102] " ، وكان – صلى الله عليه وسلم – يرسخ المفاهيم الصحيحة ؛ فيصحح الخطأ ؛ مبينا الصواب ؛ كتصحيحه لخطإ صحابته – رضوان الله عليهم – في فهمهم لمعنى الظلم في قوله – تعالى – : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [103] على عمومه ؛ مبينا أن المعنى المراد هو الشرك بالله [104] أو يعزز الصواب ؛ فيقرر اجتهاد المصيب ؛ تثبيتا له ، وتحفيزا على الاستمرار في النهج الصحيح ؛ كقوله لأبي بن كعب : " ليهنك العلم أبى المنذر" [105] في جوابه عن أعظم آية بأنها آية الكرسي .

11 -تنوع الوسائل التي يستخدمها – صلى الله عليه وسلم – في البيان والتعليم ؛ فقد تكون حسية حاضرة أمام المتلقين كما في بيانه – صلى الله عليه وسلم – لقوله – تعالى – : ﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [106] بأن خط خطا ، وجعل على يمينه وشماله خطوطا [107] ، وقد تكون من المخزون في ذهن المتلقين ؛ كوصفه لسدرة المنتهى : أن نبقها كقلال هجر ، وورقها كآذان الفيلة [108] وقد تكون الوسيلة عقلية ؛ تعتمد على الانتقال بالمتلقي من المعقول إلى المحسوس ، كبيانه – صلى الله عليه وسلم – لمعنى ا لشرك بالله بقوله – : " ومثل ذلك مثل رجل اشترى

(101) سورة آل عمران ، الآية: 77

(102) روى البخاري في صحيحه – كتاب المساقاة – باب إثم من منع ابن السبيل من الماء – حديث :2251 ، عن أبي هريرة–رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، رجل كان له فضل ماء بالطريق ، فمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها رضي ، وإن لم يعطه منها سخط ، ورجل أقام سلعته بعد العصر ، فقال : والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا ، فصدقه رجل " ثم قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ (آل عمران : 77)

(103) سورة الأنعام ، الآية: 82

(104) رواه البخاري في صحيحه – كتاب أحاديث الأنبياء–باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا – حديث:3197

(105) الحديث سبق تخريجه

(106) سورة الأنعام ، الآية : 153

(107) روى ابن حبان في صحيحه – ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبع السبل – حديث : 7عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : " خط لنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم – خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال : " هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو له " ، ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام : 153)

(108) رواه البخاري صحيحه – كتاب بدء الخلق – باب ذكر الملائكة – حديث :3050

عبدا بخالص ماله بذهب أو ورق ، وقال له : هذه داري ، وهذا عملي ؛ فجعل العبد يعمل ويؤدي إلى غير سيده ؛ فأيكم يسره أن يكون عبده هكذا " [109] [110].

12 -التنوع والشمول في بيانه في – صلى الله عليه وسلم – : فقد يكون تفسيرا فقهيا ؛ كما هو الحال في بيان آيات الأحكام ؛ كإباحته – صلى الله عليه وسلم – لسبيعة الأسلمية الزواج بعد وضع حملها ؛ بعد شهر من وفاة زوجها [111] إذ هو بيان أن قوله – تعالى – : ﴿ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [112] تخصيص لقوله – تعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [113] وقد يكون من اللون العقدي ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – : " يلقى في النار ، وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع قدمه ، فتقول قط قط "[114] إذ هو تفسير لقوله – تعالى – : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ وإثبات لصفة من صفاته – سبحانه وتعالى – [115] وقد يكون لغويا يفسر الألفاظ ويكشف معاني التراكيب ، فأما بيان الألفاظ ؛ فإن قوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا منه ما تيسر " [116] فيه دلالة وإرشاد إلى احتواء القرآن للحروف السبعة ، وأما بيانه للمعاني ؛ فقد نهج فيه منهج التطبيق العملي والاستدلال ؛ وليس أدل على تطبيقه – صلى الله عليه وسلم – لما في القرآن من وصف أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – : " كان خلقه القرآن " [117] ؛ فقد

---

(109) روى البخاري في صحيحه – كتاب تفسير القرآن – سورة البقرة – باب وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، حديث:4629، عن أم المؤمنين ،أم سلمة – رضي الله عنها – أنها قالت : " قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ".

(110) منهج النبي – صلى الله عليه وسلم – في التفسير لناصر الصايغ .

(111) رواه البخاري في صحيحه – كتاب الصوم – باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إذا رأيتم–حديث:1821 .

(112) سورة الطلاق ، الآية :4

(113) سورة البقرة ، الآية :234

(114) رواه البخاري في صحيحه – كتاب تفسير القرآن – باب قوله : وتقول هل من مزيد ، حديث :4570.

(115) سورة ق ، الآية :30

(116) روى البخاري في صحيحه – كتاب الخصومات – باب كلام الخصوم بعضهم في بعض – حديث:2309،:أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقال : " سمعت هشام بن حكيم بن حزام ، يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أقرأنيها ، وكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ، ثم لببته بردائه ؛ فجئت به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؛ فقلت : إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها ، فقال لي : " أرسله " ثم قال له : " اقرأ " ، فقرأ ، قال :" هكذا أنزلت " ثم قال لي : " اقرأ " ، فقرأت ، فقال : " هكذا أنزلت ؛ إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ؛ فاقرءوا منه ما تيسر "

(117) رواه أحمد بن حنبل في مسنده – مسند الأنصار – الملحق المستدرك من مسند الأنصار – حديث السيدة عائشة – رضي الله عنها – ،حديث :24075

كان أول الممتثلين لأوامره ، وأول المنتهين عما نهى عنه ، ولقد ربى صحبه – رضوان الله عليهم – على هذا النهج ؛ فوعوه ؛ حتى أنهم إذا سمعوا بضع آيات كريمة ؛ أكبوا على حفظها ؛ والعمل بها ؛ يقول ابن مسعود – رضي الله عنه –:" كان الرجل منا ؛ إذا تعلم عشر آيات ؛ لم يجاوزهن ؛ حتى يعرف معانيهن ؛ والعمل بهن "[118].

13 -تنوع بيانه – صلى الله عليه وسلم – بين صريح واعتلاق ، و تنوع الاعتلاق بين اعتلاق في اللفظ واعتلاق في المعنى و إشارة ؛ فالصريح ما ورد مورد التفسير ؛ بأن يقترن بيانه – صلى الله عليه وسلم – بالنص الكريم ؛ سواء قال تفسير قوله كذا هو كذا ، أو قرأ النص الكريم مستشهدا به على كلامه ، أو قال : " ثم اقرؤوا إن شئتم " ، وأما الاعتلاق باللفظ والمعنى فمن جهة الاشتراك بين النص الكريم والحديث الشريف في الأحكام أو العقائد أو المقاصد أو اللغة بفروعها ، ومنه ارتباط قوله – صلى الله عليه وسلم – : " أقرب ما يكون العبد من ربه ؛ وهو ساجد ؛ فأكثروا الدعاء "[119] بقوله – تعالى – : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[120] ووجه الارتباط هنا هو اشتراك النص الكريم مع الحديث الشريف في احتوائهما على المادتين اللغويتين : " سجد ، قرب " وأما الارتباط في المعنى ، فهو في فضل السجود ، وقد يكون الارتباط في المعنى وحده ، فإذا كان في المعنى وحده دون اللفظ ؛ فهو أدق وأخفى ؛ ذلك أنه لا مادة لغوية ظاهرة تربط بين النص الكريم والحديث الشريف ، وإنما يستنبط بالاجتهاد ، وهو براح واسع للبحث في التفسير بالسنة ؛ لم ينل حقه من البحث والتأمل ، وحظه من الاجتهاد والاستنباط ، ومنه ارتباط قوله – صلى الله عليه وسلم – : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ؛ أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ؛ ثم تدعونه فلا يستجاب لكم "[121] بقوله – تعالى – : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[122] إذ لا لفظ مشترك ، أو حتى مرادف ؛ لكن الحديث الشريف يأتلف ويتآلف مع الآية الكريمة في التحذير من عاقبة ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقد يكون الارتباط والتآلف في معاني كثيرة متنوعة ؛ كالأحاديث الشريف الواردة في أفضل الأعمال أو خيرها ؛ وما يقابلها في الآيات الكريمة التي تشير إلى فضل تلك الأعمال ؛ كفضل الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد في سبيل

(118) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان – ذكر بعض الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن – حديث :73

(119) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الصلاة – باب ما يقال في الركوع والسجود – حديث:773

(120)سورة العلق،الآية:19

(121) رواه الترمذي في سننه الجامع الصحيح– أبواب الفتن عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حديث:.2146.

(122) سورة الأنفال ، الآية :25

الله ، والدوام على العبادة ، والإطعام والإنفاق في سبيل الله [123] ولقد وعى الصحابة –رضوان الله عليهم – هذا التنوع ؛ فكانت أقوالهم وآراؤهم في التفسير متنوعة متآلفة متبايرة منتظمة كعقد الدر ؛ لا تضاد بينها ، ولا نشاز فيها ، وأما اعتلاق الإشارة فهي ارتباط بيانه – صلى الله عليه وسلم – بالنص الكريم لفظا أو معنى بوجه خفي ؛ فلا يرد في كلامه – صلى الله عليه وسلم – أو عمله أو تقريره لفظ أو معنى يرتبط مباشرة بالنص الكريم ؛ وإنما تدرك العلاقة باستقراء واسع وفهم عميق لسنته – صلى الله عليه وسلم – كارتباط قوله –صلى الله عليه وسلم – : " لا ضرر ولا ضرار " [124] بالآيات التي نهت عن إلحاق الأذى بالنفس أو إ لحاقه بالآخرين ، والآيات التي نهت عن الفساد في الأرض .

14 -توظيفه– صلى الله عليه وسلم – للقرائن ، وانتهازه للفرص في بيان معاني القرآن الكريم : لقد كان – صلى الله عليه وسلم – يعتبر الزمان والمكان ، ومقام الخطاب وحال المخطاب ، ويراعي كل ذلك في بيان المعنى ويوظفه في ترسيخ المقصد في ذهن السامع ، كاعتبار المكان في بيان المسجد المراد في قوله – تعالى – : ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [125] بأن أخذ كفا من الحصباء ؛ وضرب الأرض ، وقال : " هو مسجدكم هذا " [126] ، وكاعتبار السياق ، ومقام الخطاب في بيانه المصحح لفهم عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – حين سألته – صلى الله عليه وسلم – عن قوله – تعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾[127] : أهم الذين يشربون الخمر ؟ ويسرقون ؟ فقال – صلى الله عليه وسلم – : " لا يا بنت الصديق ؛ ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا تقبل منهم : ثم قرأ قوله –

---

(123) روى البخاري في صحيحه – كتاب التوحيد – باب وسمى النبي – صلى الله عليه وسلم – الصلاة عملا – حديث :7118 ،عن ابن مسعود – رضي الله عنه – : أن رجلا سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – : أي الأعمال أفضل ؟ قال : " الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله "، وقد تآلفت مع آيات كريمة كثيرة دلت على فضل هذه الأعمال ؛ كقوله – تعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿34﴾ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (المعارج) ، وقوله – تعالى – : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾(الإسراء: 23) وقوله–تعالى–:﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (التوبة :20).

(124) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين – كتاب البيوع – وأما حديث معمر بن راشد – حديث:2286.

(125) سورة التوبة ، الآية :108

(126) روى مسلم في صحيحه – كتاب الحج – باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي – حديث :2556 ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري ، قال : قلت له : كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال : قال أبي : دخلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بيت بعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله ، أي المسجدين الذي أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفا من حصباء ، فضرب به الأرض ، ثم قال : " هو مسجدكم هذا " لمسجد المدينة .

(127) سورة المؤمنون ، الآية :60

تعالى – : ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ "(128) (129) وجلي توظيفه – صلى الله عليه وسلم – للسياق في دفع الإشكال الوارد على ذهن عائشة – رضي الله عنها – ، وكانتهاز الفرص ، وتلقف الموقف التعليمي المناسب زمانا ومكانا ؛ لبيان معاني الآيات الكريمة ، ففي خروجه – صلى الله عليه وسلم – لهوازن ؛ سأله صحبه – رضوان الله عليهم – عند مرورهم بسدرة الكفار التي كانوا يعكفون عليها ، ويدعونها ذات أنواط ؛ فقالوا : " اجعل لنا ذات أنواط ؛ كما لهم ذات أنواط ؛ فقال – صلى الله عليه وسلم – : " الله اكبر ؛ إنها السنن ، هذا كما قالت بنو إسرائيل : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (130) " (131) .

– (*) المبحث الثاني : التفسير بمعهود البيان النبوي :

قسم الدكتور حسين بن علي الحربي التفسير بالسنة في كتابه قواعد الترجيح عند المفسرين إلى قسمين: 1) ما ورد مورد التفسير ،2) وما كان في معنى الآية ، وحكم بأن الأول لا يصار إلى غيره ، والثاني مرجح لما وافقه(132) وهذا التقسيم هو من حيث اعتلاق السنة بالنص الكريم ، وقسمه الدكتور خالد بن عبد العزيز الباتلي في كتابه التفسير النبوي إلى خمسة أقسام :

1 – تفسير نصي صريح : وهو ما ورد مورد التفسير .

2 – تفسير موضوعي : وعنى به الأحاديث الواردة في موضوع النص الكريم .

3 – تفسير لغوي : وهو ما كان فيه بيان معنى لفظ ورد في القرآن الكريم ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – لفاطمة بنت أبي حبيش – رضي الله عنها – : " إذا أتى قرؤك ؛ فلا تصلي ، فإذا مر قرؤك؛ فتطهري ، ثم

(128) سورة المؤمنون ، الآية :61.

(129) رواه الترمذي في سننه الجامع الصحيح – أبواب تفسير القرآن عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باب : ومن سورة المؤمنون ، حديث :3181.

(130) سورة الأعراف ، الآية : 138

(131) رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب التاريخ – ذكر الإخبار عن اتباع هذه الأمة سنن من قبلهم من الأمم – حديث :6810

(132) قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين بن علي الحربي 191: 238.

صلي ما بين القرء إلى القرء " [133] فهو بيان للفظ القرء في قوله – تعالى – : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ﴾ [134] أنه الحيض .

4 -تفسير استشهادي : وهو أن يردف كلامه – صلى الله عليه وسلم – بالقرآن الكريم ؛ شاهدا على صحته ؛ كقوله لليهودي الذي رفض استدانته : " والله لو باعني ، أو أسلفني ؛ لقضيته ، إني لأمين في السماء ، أمين في الأرض ، اذهب بدرعي الحديد إليه " ثم قرأ قوله – تعالى – : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [135] [136] .

5 -تفسير عام : وهو تتبع عاداته – صلى الله عليه وسلم – في البيان ، في فروع الشريعة وأصولها ، ويجمع هذا النوع وصف أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – له – صلى الله عليه وسلم – بقولها : " كان خلقه القرآن " [137] وقد نبه الدكتور خالد الباتلي إلى أن صور هـ ذهـ الأقسام: إما أن تكون بيانا للفظ غريب ، أو تعيينا لمبهم ، أو تخصيصا لعام ، أو تقييدا لمطلق ، أو بيانا لمجمل ، أو نسخا ؛ على من يرى نسخ القرآن بالسنة [138] .

ويمكن أن نخلص إلى تقسيم أعم وأشمل وأدق ؛ يكون على أربعة أقسام هي :1) صريح ، 2) في معنى الآية ، 3) فيه إشارة إلى معنى الآية ،4) تفسير بمعهود بيانه – صلى الله عليه وسلم – وبيانها كالآتي :

1 -تفسير نصي صريح : وهو ما قصد به المصطفى – صلى الله عليه وسلم – التفسير ، وهو أعلى مراتب التفسير النبوي ، فلا يصار إلى غيره ، وكل ما يخالفه مردود ، ولا اجتهاد معه ؛ إلا في بيان معاني ألفاظه – صلى الله عليه وسلم – الواردة في الحديث ، والوجه الذي تحمل عليه .

2 -تفسير في معنى الآية : يظهر فيه اعتلاق الحديث الشريف بالنص الكريم ؛ في اللفظ ؛ كالاشتراك أو الترادف ، أو في المعنى ، وهذا من البيان الموضوعي ، وهو أوسع من الأول ؛ إذ قد يشترك أكثر من حديث

(133) رواه أبو داود في سننه – كتاب الطهارة – باب في المرأة تستحاض – حديث :245

(134) سورة البقرة ، الآية :228

(135) سورة طه ، الآية : 131

(136) رواه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية – كتاب البيوع – باب الرهن – حديث :1545

(137) رواه البيهقي في شعب الإيمان – فصل في خلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخلقه ، حديث :1407

(138) التفسير النبوي دراسة تأصيلية للدكتور عبد العزيز الباتلي 34

شريف في معنى آية كريمة ، وكلاهما يعتمد على اجتهاد المفسر في إدراك العلاقة ؛ ثم توظيفها ، وهو يلي النصي الصريح مرتبة .

3 -تفسير نبوي فيه إشارة إلى معنى الآية : وهو أخص وأدق ؛ إذ العلاقة فيه بين النص الكريم والحديث الشريف خفية لا تدرك ؛ إلا بالبحث الدقيق ، والتأمل العميق ، كالعلاقة التي تربط قوله – تعالى – : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [139] وقوله – تعالى – : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [140] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " قال الله – عز وجل – : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فأكون أول من رفع رأسه ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي ، أو كان ممن استثنى الله – عز وجل – " [141] فللحديث الشريف يربط بين النصين الكريمين ، ويفهم منه أن الاستثناء في الآية الأولى يشمل موسى – عليه السلام – لأنه صعق – عليه السلام – في الدنيا عندما سأل الرؤية .

4 -تفسير بمعهود بيان المصطفى – صلى الله عليه وسلم – : وهذا النوع يعتمد على الاستقراء التام ، والبحث والتأمل في عاداته – صلى الله عليه وسلم – في البيان : اصطلاحاته ، وضروبه ، ومناحيه في الفصاحة والبلاغة ، والتشريع ، والاجتهاد ، واستنباط القواعد العامة ، والأسس المشتركة بينها ، واستنباط منهجه في التفسير في لون من ألوان التفسير أو اتجاهاته أو أصول التفسير أو قواعده أو موضوعات علوم القرآن ؛ فهو العادة التي درج عليها – صلى الله عليه وسلم – في البيان والتبليغ والتشريع والتربية .

– المطلب الأول : التفسير النبوي ومعهود البيان النبوي :

التفسير النبوي هو : كل قول أو فعل أو تقرير صدر عن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وكان مراده كشف المعنى ؛ وحكمه القطع بأنه المراد ؛ والتفسير بالسنة أو البيان النبوي للقرآن هو : توظيف المفسر للسنة في استنباط المعنى ، وكشف المراد ؛ بإدراك العلاقة الظاهرة في اللفظ أو المعنى ، فهو تفسير غير المصطفى – صلى الله عليه وسلم – كالصحابي والتابعي – رضوان الله عليهم – والعلماء المجتهدين

(139) سورة الزمر ، الآية : 68

(140) سورة الأعراف ، الآية : 143

(141) رواه ابن ماجة في سننه – كتاب الزهد – باب ذكر البعث – حديث :4272

والمفسرين ؛ وعليه يكون التفسير بالسنة أعم من التفسير النبوي ، أما معهود البيان النبوي ؛ فهو استقراء بيانه – صلى الله عليه وسلم – واستنباط أسس منهجه في كشف المعاني واستنباط الفوائد ،فهو أعم من الاثنين .

فالتفسير النبوي هو أن يبتدر النبي – صلى الله عليه وسلم – التفسير ، أو أن يسأله صحابي ؛ فيجيب – صلى الله عليه وسلم – مبينا المعنى القطعي بالمراد ، أو أن يتأول – صلى الله عليه وسلم – أمرا أو نهيا في القرآن الكريم ؛ فيعمل عملا ، أو يقول قولا يبين ذلك الأمر أو النهي ، ومثال أن يبتدر – صلى الله عليه وسلم – التفسير ؛ بيانه – صلى الله عليه وسلم – لقوله – تعالى – : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [142] بأن الحسنى هي الجنة ، و أن الزيادة هي النظر إلى وجهه – سبحانه وتعالى – يوم القيامة [143]، ومثال جوابه – صلى الله عليه وسلم – عن سؤال صحابي ؛ ما روي عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – أنه سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن البشرى في قوله – تعالى – : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[144] ؛ فأجاب – صلى الله عليه وسلم – بأنها الرؤيا الصالحة ؛ يراها المسلم ، أو ترى له [145] ، وأما تأوله – صلى الله عليه وسلم – للأوامر والنواهي في القرآن الكريم بقول أو عمل ؛ فمثاله ما روي عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – : " ما صلى النبي – صلى الله عليه وسلم – صلاة بعد أن نزلت : ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [146] إلا يقول فيها : سبحانك ربنا ، وبحمدك ؛ اللهم اغفر لي"[147].

يقول الدكتور مساعد الطيار:" إن إدخال الأفعال النبوية في التفسير النبوي يحتاج إلى تحرير " [148] منبها إلى أن امتثاله – صلى الله عليه وسلم – لما في القرآن الكريم إجمالا ؛ يكون تفسيرا نبويا ؛ أما تفاصيله فمحل نظر ؛ فقوله – تعالى – : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ [149] يكون تأول المصطفى – صلى الله عليه وسلم – بإقامة الصلاة ، أما تفاصيله من : قراءة وركوع وسجود وسلام ؛ فمحل نظر ؛ لأنها زيادة على ما جاء في القرآن الكريم [150].

---

(142) سورة يونس،الآية:26

(143) رواه مسلم في صحيحه– كتاب الإيمان– باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى – حديث:292

(144) سورة يونس،الآية:64

(145) رواه ابن ماجة في سننه – كتاب تعبير الرؤيا– باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له – حديث:3896

(146) سورة النصر،الآية:1

(147) رواه البخاري في صحيحه – كتاب تفسير القرآن– سورة البقرة – سورة إذا جاء نصر الله– حديث:4688)

(148) مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير لمساعد الطيار 140

(149) سورة البقرة،الآية:43

(150) مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير لمساعد الطيار 140

أما البيان النبوي ؛ فإما أن يرد في كلامه – صلى الله عليه وسلم – ما يصلح أن يكون تفسيرا للنص الكريم ؛ فيكشف به المفسر المعنى المراد ، ومثاله اجتهاد أبي هريرة – رضي الله عنه – في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [151] باستنباطه من قوله – صلى الله عليه وسلم – : " ما من بني آدم مولود؛إلا يمسه الشيطان حين يولد؛فيستهل صارخا من مس الشيطان ، غير مريم وابنها" [152]

فقد ربط – رضي الله عنه – الحديث بمعنى الآية ، ومنه تفسير علو مكانة إدريس – عليه السلام – في قوله – تعالى-:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴿56﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّا ﴾ [153]

بحديث المعراج الذي جاء فيه أنه رآه – صلى الله عليه وسلم – في السماوات [154]، وإما أن يكون في سنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إشارة إلى قضية أو غرض أو مقصد في نص من القرآن الكريم ، وهو أدق من الأول ؛ ومثاله اعتلاق قوله – صلى الله عليه وسلم – : " أقرب ما يكون العبد من ربه ؛ وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء " [155] بقوله – تعالى – : ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [156]

، ومنه ما أورده البخاري تحت باب تفسير قوله – تعالى – : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [157]

عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن أبغض الرجال إلى الله : الألد الخصم " [158]؛ ويظهر بجلاء هنا أن ربط الحديث الشريف بنص القرآن الكريم اجتهاد من المفسر ؛ أي أن المفسر شارك في التفسير ؛ فلا يكون قطعا بالمراد ؛ وكذا المحدثون يوردون من كلام المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ما يتعلق بالآية ؛ ولو بوجه بعيد لأي سبب ؛ قال صاحب الفيض : " ثم اعلم أن تفسير المصنف " البخاري " ليس على شاكلة تفسير المتأخرين في كشف المعلقات ، وتقرير المسائل ؛ بل قصد فيه إخراج حديث مناسب متعلق به ؛ ولو بوجه " [159].

(151) سورة آل عمران ،الآية: 36
(152) رواه البخاري في صحيحه – كتاب أحاديث الأنبياء– باب قول الله تعالى واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من – حديث:3264
(153) سورة مريم
(154) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الإيمان– باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات – حديث:260
(155) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الصلاة–باب ما يقال في الركوع والسجود – حديث:773
(156) سورة العلق ،الآية: 19
(157) سورة البقرة ،الآية: 204
(158) رواه البخاري في صحيحه – كتاب المظالم والغصب– باب قول الله تعالى : وهو ألد الخصام – حديث:2345
(159) ينظر فيض الباري على صحيح البخاري لمحمد الكشميري 105/4.

أما معهود البيان النبوي للقرآن فهو استقراء بيانه في لون من ألوان التفسير أو علم من العلوم واستنباط منهجه – صلى الله عليه وسلم – واستجلاء الأسس التي يقوم عليها بيان هذا منهجه في التفسير :

– المطلب الثاني : منهج استنباط معهود البيان النبوي :

إن أول ما يرجع إليه المفسر في الكشف عن مراد كلامه – سبحانه وتعالى – هو السنة النبوية المطهرة المعصومة ؛ وذلك بالبحث في الصريح منها ، ثم في الألفاظ والتراكيب ، ومرادفاتها ، ومعانيها المطابقة والمشابهة والمقاربة لها ؛ بل والمقابلة لها ، وكل ماله علاقة أو ارتباط ؛ ولو بوجه بعيد بسنته – صلى الله عليه وسلم – وتأمل الغايات والمقاصد ، والجامع بينها ، وما تحتاج إليه من مقدمات وأسس ، وما يترتب عليها من نتائج ، وما يجنى منها من ثمرات ، وتأمل الكل في رحاب القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛ ويمكن تلخيص خطوات استنباط الوقوف على المعهود من بيانه – صلى الله عليه وسلم – في الآتي :

1 -تعيين جهة التعلق بين النص الكريم والسنة النبوية المطهرة ؛ فقد تكون من جهة اللفظ المفرد ، أو التركيب ؛ وقد تكون من جهة المعنى أو المقصد .

2 -استقراء العلاقة أو الارتباط بين النص الكريم والسنة المطهرة في كتب السنة ، وحصرها ثم تصنيفها من جهة قوة الارتباط وصحة السند .

3 -انتخاب الأصح منها ، والأقوى ارتباطا ، ثم الأوفق للسياق والمعنى والمقصد .

4 -الجمع بين ما ظاهره الاختلاف في سنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ذلك أن الأصل فيه ا التكامل والتوافق ؛ لا التعارض والاختلاف ؛ فما صح منه ا ؛ فهو تنوع وشمول ، وما تضاد ، ولا سبيل إلى التوفيق بينه ؛ توقف فيه ؛ إن صح ، وما تكلم في سنده ؛ فهو إما من الضعيف ، وإما من الموضوع المختلق عليه – صلى الله عليه وسلم – .

– المطلب الثالث : أنواع معهود البيان النبوي :

تنوع معهود بيانه – صلى الله عليه وسلم – في الكشف عن مراد ربه – سبحانه وتعالى – من كلامه ؛ تبعا لتنوع الأغراض والمقاصد وألوان التفسير ؛ وأهم هذه الأنواع :

–معهود فصاحته – صلى الله عليه وسلم – :

جاء القرآن الكريم غاية في الفصاحة ؛ صافيا نقيا من الحوشي والمستهجن ؛ وكان المصطفى – صلى الله عليه وسلم – كما وصفته أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – متخلقا بالقرآن ؛ فلا ريب أن يفوح على لسانه – صلى الله عليه وسلم – ويعبق فاه بألفاظ وتراكيب صافية نقية ؛ لا يخالطها الحوشي ولا المستهجن ؛ فقد كان – صلى الله عليه وسلم – يختار الألفاظ بعناية ، وينتقي من معانيها ؛ لينظمها بحيث تؤتي أكلها على أكمل وجه ، وأتم مقصد ، ولما كانت فصاحته – صلى الله عليه وسلم – أساسا في فهم مراده – سبحانه وتعالى – من كلامه ؛ لزم تتبع منهجه المعهود في بيان الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم ، والوقوف عليه واعتماده في بيانها ؛ فعلى سبيل المثال كل ما جاء في القرآن من مادة : (خ س ر) مثلا ؛ يفسر على أنه عاقبة الظلم ، وما في معناه من : اعتداء ، وبغي ؛ وهذا المعنى له ارتباط بقول المصطفى – صلى الله عليه وسلم – : " أتدرون من المفلس ؟ " قالوا : المفلس فينا يا رسول الله : من لا درهم له ، ولا متاع له ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " المفلس : من أمتي : من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته ، وقد شتم هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ؛ فيقعد ؛ فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يعطي ما عليه ؛ أخذ من خطاياهم ؛ فطرحت عليه ، ثم طرح في النار " [160] ويؤيده قوله –صلى الله عليه وسلم – : " الدواوين ثلاثة : فديوان لا يغفر الله منه شيئا ، وديوان لا يعبأ الله به شيئا ، وديوان لا يترك الله منه شيئا ، فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئا : فالإشراك بالله – عز وجل – قال الله – عز وجل – : إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئا قط : فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه ، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا : فمظالم العباد بينهم ؛ القصاص لا محالة " [161] ومنه تفسير معنى المس في القرآن الكريم بقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ما من بني آدم مولود ؛ إلا يمسه الشيطان ؛ حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان ، غير مريم وابنها " [162] ولا مراء في أن التلبس بالجسد والسيطرة عليه ؛ لا يدخل في معنى المس المفهوم من قوله – صلى الله عليه وسلم – إذ لو صح هذا ؛ لكان الكل متلبسا بالشيطان وتحت سيطرته ؛ إلا عيسى وأمه – عليهما السلام – ؛ فيكون تفسير المس الوارد في قوله – تعالى – : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [163] على هذا المعنى بالوسوسة ، وهو الذي ينسجم ويتوافق مع قوله – تعالى – : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ

(160) رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب الحدود – باب الزنى وحده – ذكر الخبر المصرح بإيجاب النار على السارق والزاني ، حديث :4475

(161) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين – كتاب الأهوال – حديث :8804 ، وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه "

(162) رواه البخاري في صحيحه – كتاب أحاديث الأنبياء – باب قول الله – تعالى – واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من– حديث:3264

(163) سورة البقرة ، الآية : 275

﴿[164] وقوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[165] إذ لا يمكن حمله هنا على التلبس ؛ لأنه يترتب عليه القول بتلبس الشيطان بأيوب – عليه السلام – والدين اتقوا ؛ فيكون معنى المس هنا هو الوسوسة .

2– معهود بلاغته – صلى الله عليه وسلم – :

وكما كان اختياره – صلى الله عليه وسلم – للألفاظ غاية في الفصاحة ؛ كان نظمها ، وسبكها ، ونسق سياقها ؛ منتهى البلاغة والبيان ؛ حتى كانت لغته – صلى الله عليه وسلم – بينة في نفسها ؛ لا تحتاج إلى شرح ؛ واضحة لا غرابة فيها ؛ لولا غربة لغتنا فينا ؛ فكانت مناحيه وضروبه – صلى الله عليه وسلم – في التشبيهات والكنايات والاستعارات أنموذجا في الصنعة ، لا سبيل لغيره إليها ، لاعن دربة ؛ وإنما ملكة وهبه إياها ربه – سبحانه وتعالى – ولا يمكن البحث والكشف في المعاني والدلائل الخفية في أسلوب القرآن الكريم ، وكشف نور مراده ، وسر إعجازه ، وروح مقصده ؛ إلا بالاستنارة بسنته – صلى الله عليه وسلم – وتتبع أسلوبه واقتفاء نهجه ؛ وإن إغفاله ، والعدول عنه ؛ يوقع في الخطأ والزلل والانحراف عن مراده – سبحانه وتعالى – و التقول عليه ؛ يقول الدكتور صلاح خليل عبد العال سرور أستاذ الدراسات اللغوية بجامعة القاهرة : " ولابد من استصحاب البيان النبوي ، ومعهود العرب في الخطاب ، والمعاني التأثيرية لهما ، أثناء النظر في الدلالات القرآنية....، وبذلك يكون البيان النبوي عصمة للنص القرآني من التحريف "[166] مشيرا إلى أن المفسرون قد أخفقوا في تفسير نصوص كريمة ؛ بسبب إغفالهم لتتبع المعهود النبوي في البيان ؛ كتفسيرهم لقوله – تعالى – : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾[167] عندما جعلوا المشبه به " المستوقد " هو المنافق ، وأن " اسْتَوْقَدَ " بمعنى أوقد ؛ ذلك أنهم غفلوا عن معهوده بيانه – صلى الله عليه وسلم – في قوله :" إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ؛ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ التي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ ؛فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا ، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا "[168] وبين الدكتور صلاح أن هـ ذا التمثيل من أوجز الكلام ، وأبلغه ، وأشده اختصارًا ، ويستفاد منه أنه – صلى الله عليه وسلم – هو الهادي الأعظم ، استوقد شعلة الهداية ، وعالج إيقادها

---

(164) سورة ص ، الآية :41

(165) سورة الأعراف ، الآية :201

(166) مجلة الوعي الإسلامي ، العدد 653

(167) سورة البقرة ، الآية :17

(168) رواه البخاري في صحيحه – كتاب الرقاق –ب اب الانتهاء عن المعاصي – حديث :6128

أمام زوابع الفتن ، وأعاصير المقاومات العنيفة ، فلما أوقدها وأضاءت ما حوله ، ونادى في الناس هلموا إلى الجنة ، هلموا عن النار ؛ تدافع الكفار إلى النار ، جهلا وحسدا ، فيكون تفسير المفسرين لموقد النار بالمنافق ، وأن " الذي " بمعنى " الذين " غير صحيح ، ذلك أنه يخالف معهود بيان النبي – صلى الله عليه وسلم – ويخالف معهود الخطاب عند العرب في أن دلالة إيقاد النار هي هداية المسافر أو التائه في الصحراء ، إذا قصدها ؛ وجد عندها القِرى والضيافة والهداية ، ولقي من موقدها كل حفاوة وترحيب وإكرام [169] ، ولقد أشار ابن عاشور إلى هذا النهج في تفسيره لقوله – تعالى – : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [170] حيث وظف – رحمه الله – في تفسير حلف المنافقين يوم القيامة على الكذب مع معاينتهم الحقائق ؛ ما رواه البخاري عن أبي هريرة : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يوما يحدث ، وعنده رجل من أهل البادية : " أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع ؛ فقال له : أولست فيما شئت ؟ قال : بلى ، ولكني أحب أن أزرع ، فأسرع وبذر ؛ فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال ، فيقول الله – تعالى – : دونك يا ابن آدم ، فإنه لا يشبعك شيء " ، فقال الأعرابي : يا رسول الله ، لا تجد هذا إلا قرشيا أو أنصاريا ؛ فإنهم أصحاب زرع ، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع ؛ فضحك رسول الله " [171] وأشار ابن عاشور – رحمه الله –إلى أن ضحك المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إقرار لفهم الأعرابي ؛ ودل على أن التخلق بصفات في الدنيا ؛ يتأصل في النفس ، ويمتد إلى يوم القيامة ، وهذا التأويل يؤيده قوله – صلى الله عليه وسلم – :" كل يحشر على ما مات عليه " [172].

3 – معهوده – صلى الله عليه وسلم – في بيان الأحكام :

إن عبادته – صلى الله عليه وسلم – لربه هي الأنموذج والمثال ؛ وسط ؛ لا إفراط ولا تفريط ؛ لا رهبانية ، ولا انغماسا في الملذات ؛ يسرٌ لا حرج ولا ضيق ، تمام الطاعة ، وكمال العبادة ، يقول الحق – تبارك وتعالى – : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [173] خطابا له – صلى الله عليه وسلم – ولأمته ؛ حتى حازت بوسطيتها المستمدة من سنته فضلا ومكانة وكرامة بين الأمم ؛ يقول – صلى الله عليه وسلم – : " مثل المسلمين واليهود والنصارى ، كمثل رجل استأجر قوما ، يعملون له عملا إلى

(169) مجلة الوعي الإسلامي ، العدد 653

(170)سورة المجادلة ، الآية :18

(171) رواه البخاري في صحيحه – كتاب المزارعة – باب كراء الأرض بالذهب والفضة – حديث :2242

(172) التحرير والتنوير لابن عاشور 53/28.

(173)سورة البقرة ، الآية :143

الليل ؛ فعملوا إلى نصف النهار ؛ فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك ، فاستأجر آخرين ، فقال : أكملوا بقية يومكم ؛ ولكم الذي شرطت ؛ فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر ؛ قالوا : لك ما عملنا ، فاستأجر قوما ؛ فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، واستكملوا أجر الفريقين " [174] هذا المنهج الوسطي ارتكز على أصول وأسس ؛ أثمرت فهما عميقا لدلالات آيات الأحكام ومقاصدها ؛ ولنعبد الله كما يحب ويرضى ؛ علينا أن نفهم آياته على مراده – سبحانه وتعالى – وهذا لا يكون إلا باتباع بيانها من السنة المطهرة المعصومة منهج خير من عبده – سبحانه وتعالى – ؛ وذلك بتدبر آياته ، وفهمها مستنيرين بمنهجه – صلى الله عليه وسلم – سائرين على خطاه ، التي أكدت على اليسر ، ورفع الحرج ، واعتبار المقاصد ؛ وله ذا فسر ابن عاشور قوله – تعالى – : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [175] بقوله – تعالى – : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿2﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلا ﴾ [176] مستنيرا بقوله – صلى الله عليه وسلم – لعبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – : " ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ؟ " قلت : نعم ، يا رسول الله ، قال : " فلا تفعل ، صم وأفطر ، ونم وقم ، فإن لنفسك عليك حقا ، ولجسدك عليك حقا ، وإن لزوجتك عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، فإذا ذلك صيام الدهر كله " [177] [178] وهو ما يؤكده قوله – صلى الله عليه وسلم – : " من صلى العشاء في جماعة ؛ فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة ؛ فكأنما صلى الليل كله " [179] ، ويدخل في هذا النوع بيان الآيات الكريمة المتعلقة بمناسك الحج ؛ بحيث تفسر في ضوء ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – : " فما سئل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن شيء قدم ولا أخر ؛ إلا قال : " افعل ولا حرج " [180].

4 – معهوده – صلى الله عليه وسلم – في بيان الغيبيات :

يقوم منهجه – صلى الله عليه وسلم – في بيان مراده – سبحانه وتعالى – من الآيات المتعلقة بالإيمان بالغيبيات على حمل الألفاظ على معانيها ؛ ذلك أن القرآن الكريم خاطب أهل التلقي بما يفهمون ؛ ما لم تقم قرينة مانعة ؛

(174) رواه البخاري في صحيحه – كتاب مواقيت الصلاة – باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب – حديث :543

(175) سورة الذاريات ، الآية :17

(176) سورة المزمل

(177) رواه النسائي في السنن الكبرى للنسائي – كتاب الصيام – سرد الصيام – صوم الرجل مع زوجته وحقها في ذلك ، حديث :2859

(178) ينظر : التحرير والتنوير 26/ 249

(179) رواه مسلم في صحيحه – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة – حديث :1084

(180) رواه البخاري في صحيحه – كتاب العلم – باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها – حديث:83

فإقراره – صلى الله عليه وسلم – لقول الأعرابي : " لن نعدم من رب يضحك خيرا " [181] بيان للأساس الأول في فهم آيات العقيدة ، وهو حملها على ظاهرها ، وأما ما يدل على الأساس الثاني ، وهو المنع ؛ إذا قامت القرينة ؛ فيؤخذ من قوله – صلى الله عليه وسلم – : " تفكروا في الخلق ، ولا تفكروا في الخالق " [182] هذا فيما يتعلق بآيات صفاته – سبحانه وتعالى – ، فهو بين البيان والتفويض ، وأما آيات العقيدة المتعلقة بالغيبيات في خلقة ؛ فإن بيانها ؛ إما بحمل اللفظ على ظاهره كوصفه – صلى الله عليه وسلم– لسدرة المنتهى : بأن نبقها كقلال هجر ، و ورقها كآذان الفيلة [183] ، أو بما يشبه التفويض مبالغة ؛ لا حقيقة ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم – في وصف الجنة : " فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت " [184].

5 – معهوده – صلى الله عليه وسلم – في بيان القصص :

إن منهج القرآن الكريم في عرض القصص له مقاصد وغايات ، تندرج وتتآلف مع مقاصده العامة ؛ التي تهدف إلى الإصلاح والتربية ؛ ولهذا نثرت مشاهد أغلب القصص في مواضع متفرقة ؛ وفقا لما ينتخبه السياق ويتطلبه الغرض ويقتضيه المقصد ، فكانت المشاهد المعروضة مختارة بعناية ؛ مقتصرة على محل الفائدة ؛ مركزة ومسلطة الضوء على مواضع الاتساء والاعتبار ؛ في إيجاز غير مخل ، وإطناب غير ممل ، وقد جاء تفصيل هذا القصص في إرث الشرائع السماوية ؛ غير أنه طاله العبث والتحريف ، وخالطه الكذب والافتراء ؛ فنزع مصداقيته ، ورفع عنه الثقة ؛ وقد نبه القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى التحريف والتلاعب الذي طال هذه الشرائع بأيدي أحبارهم ورهبانهم ؛ الذين يمثلون النخبة فيهم ، وليس أدل على ذلك من افتراءهم على صفوة خلقه – سبحانه وتعالى – " الأنبياء – عليهم السلام – " يقول الحق – تبارك وتعالى – : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ [185] ؛ فوجب الاحتياط في الأخذ عنهم ، ولقد كان منهجه – صلى الله عليه وسلم – في توظيف هذا الإرث في تفسير الكتاب الكريم ؛ موافقا لمنهج القرآن الكريم ؛ وسطا بين القبول والرد ؛ يقول – صلى الله عليه وسلم – : " لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ [186] "

---

(181) رواه البيهقي في الأسماء والصفات – باب ما جاء في الضحك – حديث :935

(182) رواه هناد بن السري في الزهد – باب التفكر لله جلت قدرته وحديث النفس – حديث:940

(183) روى البخاري في صحيحه – كتاب المناقب – باب المعراج – حديث: 3696 ،عن مالك بن صعصعة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ثم رفعت إلي سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة "

(184) رواه مسلم في صحيحه – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – حديث:5160

(185) سورة النساء ، الآية :46

(186) سورة العنكبوت ، الآية :46

[187] امتثالا لأمره – سبحانه وتعالى – ؛ فقد كان – صلى الله عليه وسلم – ينتخلها ؛ منتخباما وافق الحق ، رادا افتراءاتهم ، وتقولهم على الله ؛ جاء حبر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا محمد ، إن الله يضع السماء على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر والأنهار على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يقول بيده : أنا الملك ؛ فضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إقرارا ، وتصديقا ؛ ثم قرأ قوله – تعالى – : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [188] [189] " إلا أن الأصل الاستغناء عما عندهم بما عندنا من الكتاب والسنة ، والاكتفاء بهما عما سواهما ؛ فالقرآن الكريم مهيمن على ما تقدمه ، والسنة المطهرة مبينة وحاكمة ؛ لقد أتى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – النبي – صلى الله عليه وسلم – بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقال : يا رسول الله ، إني أصبت كتابا حسنا من بعض أهل الكتاب ؛ فغضب – صلى الله عليه وسلم – وقال : " أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؛ فو الذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء ؛ فيخبروكم بحق ؛ فتكذبوا به ، أو بباطل ؛ فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده ؛ لو كان موسى حيا ؛ ما وسعه إلا أن يتبعني " [190].

6 – معهوده في تفسير الآيات الكونية :

إن منهج القرآن الكريم في الإشارة إلى الآيات الكونية ؛ يقوم على الدعوة إلى التفكر فيها ؛ والإشارة إلى إتقان صنعها ، وحكمة تدبيرها ؛ فللاستدلال بها على عظيم قدرته – سبحانه وتعالى – ارتقاء بالعقل البشري إلى أهم مقصد ، وأسمى غاية ؛ ألا وهي توحيده – سبحانه وتعالى – وإفراده بالعبادة ، ومنهجه – صلى الله عليه وسلم – في بيانها موافق ومتكامل مع منهج القرآن الكريم ؛ يقوم على التفكر فيها ، و إبطال الأساطير والخرافات التي اختلقها الكفار والجهال حولها ، ثم التدبر في إدراك إتقانها ، وحكمة صنعها ؛ فالاستدلال بها على وحدانيته – سبحانه وتعالى – وعظيم قدرته ، وسعة علمه ، يقول – صلى الله عليه وسلم – : " إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله ، فإذا رأيتموهما ؛ فصلوا " [191] ، وتفسيره – صلى الله عليه وسلم – لهذه الآيات الكونية؛ هو إعجاز يؤكد إعجاز ، فكما تضمن القرآن الكريم طي دعوته إلى

---

(187) رواه البخاري في صحيحه – كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لا تسألوا – حديث:6950

(188)سورة الزم ، الآية : 67

(189) رواه البخاري في صحيحه – كتاب التوحيد – باب قول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ (فاطر :41) – حديث :7035

(190) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه – كتاب الأدب – من كره النظر في كتب أهل الكتاب – حديث :25881 .

(191) رواه البخاري في صحيحه – كتاب الجمعة – أبواب الكسوف – باب الصلاة في كسوف الشمس ، حديث :1008

التفكر في الآيات الكونية إعجازا علميا ؛ جاءت السنة النبوية المطهرة مؤكدة له ذا الإعجاز ؛ فقوله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿12﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿13﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين ﴾ [192] يؤكده ويبينه قوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات ، فيكتب عمله ، وأجله ، ورزقه ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح " [193].

7 – معهوده – صلى الله عليه وسلم – في ترتيب الآيات والسور :

لقد كان – صلى الله عليه وسلم – يبين لكتبة الوحي مواضع الآيات الكريمة من سورها عند النزول ؛ حتى اكتمل القرآن الكريم في أبهى نظم ، وأتم نسق ، جامعا للأصول ، شاملا للمقاصد ، لا خلل فيه ولا تخاذل ، لا قصور فيه ، ولا تعقيب عليه ، ذلك أنه من عند من أحاط بكل شيء علما ، فلا مجال للاجتهاد في ترتيبه وتنسيقه ؛ وإنما الاجتهاد في البحث في أسرار تناسب هـ ذا الترتيب والنسق ، واستنباط الحكم والمقاصد من انسجام المقاطع والتحامها ، وتآلف السياقات وائتلافها ، فرغم الافتراق الزماني والمكاني في نزولها ؛ استمرت وجوه الارتباط والتناسب بين المقاطع حول محاورها ، وتدفقت روافد الأغراض والمقاصد بين السياقات ؛ لتصب في أسمى الغايات ، على نهج لم ينكره البلغاء ؛ لكنه فاق طوقهم ، وسجل عجزهم عن الإتيان بنظم ولو سورة من مثله ؛ وإن كان الجن لهم ظهيرا ، فسورة البقرة مثلا جاءت في نظمها بعد الفاتحة مع تباعدها عنها في تاريخ النزول ، وعد الآيات ؛ لكن التناسب في الألفاظ والتراكيب بينهما جلي ، والارتباط بين أغراضهما والمقاصد فيهما معجز ، بل إن التناسب والارتباط شمل حتى سورة آل عمران وما بعدها ؛ فقوله – تعالى – في سورة الفاتحة : ﴿ اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾ [194] يناسبه قوله – تعالى – : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [195] ، ودلك لاشتراكهما في المادة اللغوية : " هـ د ى " وهذا الاشتراك يفضي إلى أن الصراط المستقيم هو الكتاب المشار إليه في افتتاحية سورة البقرة ، وهو المشار إليه في افتتاحية سورة آل عمران في قوله – تعالى – : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [196]

---

(192) سورة المؤمنون.

(193) رواه البخاري في صحيحه – كتاب أحاديث الأنبياء – باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته – حديث:3169

(194) سورة الفاتحة ، الآية :6

(195) سورة البقرة ، الآية :2

(196) سورة آل عمران ، الآية : 7

أما المنعم عليهم في سورة الفاتحة في قوله – تعالى – : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾[197] ؛ فهم المتقين في سورة البقرة المشار إليهم في قوله – تعالى – : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[198] ؛ وهم المشار إليهم في سورة آل عمران في قوله – تعالى – : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[199] ، وجاء في سورة الفاتحة التح ذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الانحراف عن الجادة السوية في قوله – تعالى – : ﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾[200] وكان تفصيله ببيان المنزلقات التي وقع فيها اليهود في المشاهد التي صورتها سورة البقرة في قوله – تعالى – : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾[201] ، وقوله – تعالى – : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[202] ، وقوله – تعالى – : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾[203] أما سورة آل عمران فقد صورت مشاهد الانزلاق المتعلقة بالنصارى بدءا من قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[204] ، وقوله – تعالى – : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[205] ، وقوله – تعالى – : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[206] ، وقوله – تعالى – : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[207] وهنا وجب التنبيه إلى أن البحث في تاريخ النزول وفق الترتيب ؛ سائغ مقبول ، أما عكسه ؛ فمردود غير سائغ ؛ ذلك أن الترتيب توقيف ، وإغفال هذا التوقيف المعهود عنه – صلى الله

(197) سورة الفاتحة ، الآية :7
(198) سورة البقرة ، الآية :2
(199) سورة آل عمران ، الآية :7
(200) سورة الفاتحة ، الآية :7
(201) سورة البقرة ، الآية : 54
(202) سورة البقرة ، الآية :55
(203) سورة البقرة ، الآية :246
(204) سورة آل عمران ، الآية :59
(205) سورة آل عمران ، الآية :71
(206) سورة آل عمران ، الآية :75
(207) سورة آل عمران ، الآية :78

عليه وسلم – لا شك أنه يجر إلى فهم خطأ منحرف عن مراده – سبحانه وتعالى – يوقع في الزلل ، ويقود إلى التقول على الله ، والافتراء عليه ؛ فقد زعم الروافض أن هناك سقط عند الالتفات بين قوله – تعالى – : ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿14﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [208] الذي جاء بضمير الغيبة ، وقوله – تعالى – : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿16﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [209] الذي جاء بضمير الخطاب ؛ ذلك أنهم تعمدوا إغفال معهود الترتيب عنه – صلى الله عليه وسلم – [210] ؛ فوقعوا في التقول على الله – سبحانه وتعالى – ؛ فادعوا في القرآن خلاف قوله – تعالى – : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [211] ، وفي رسوله – صلى الله عليه وسلم – فاتهموه بالكتمان.

(*) الخاتمة:

وبعد ؛ فإن البحث في سنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – هو السبيل إلى الوقوف على مراده – سبحانه وتعالى – من كلامه ، وهو الأساس في رسم المنهج الصحيح في تفسير القرآن الكريم والوقوف على مقاصده وغاياته ، واستنباط حكمه وأحكامه ؛ ولقد خلصت في هذا البحث والعرض إلى هذه النتائج :

1 -أن المنهج الصحيح لتفسير القرآن الكريم ، والطريق الموصل إلى فهم مراده – سبحانه وتعالى – من كلامه هو السنة النبوية المطهرة ؛ ذلك أنها البيان الذي أحالنا عليه القرآن ، حفظها – سبحانه وتعالى – من الخطأ ؛ بحفظ القرآن الكريم من التحريف ؛ ذلك أنه من لوازم حفظ القرآن ؛ حفظ بيانه ؛ إذ لا سبيل إليه إلا بها .

2 -لقد ترك لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إرثا عظيما ، وبحرا زاخرا بالعلوم ؛ سجله صحبه – رضوان الله عليهم – ودونه علماء الأمة في كتب السنة ، تضمن البيان والمنهج إلى الوقوف على مراد الله – سبحانه وتعالى – من كلامه ؛ فكان فيه الكفاية والغنية .

3 -المصدر الأساس وأصل الأصول الذي يجب على المفسر أن يقصده ، ويعتمده في الوصول إلى فهم مراده – سبحانه وتعالى – هو السنة النبوية ، وإن الحيد عنه ، أو إغفاله ؛ يوقع في الخطأ والانحراف عن مراده – سبحانه وتعالى – والتقول عليه .

---

(208) سورة القيامة

(209) سورة القيامة

(210) مفاتيح الغيب للفخر الرازي222/30

(211) سورة الحجر ، الآية :9

4 -استصحاب معهود النبي – صلى الله عليه وسلم – في الدراسات الإسلامية ؛ هو الدليل والمرشد إلى الطريق القويم والنهج المستقيم لفهم الدين ؛ فهما صحيحا ، وهو الوجاء العاصم المانع من الزلل ، والوقوع في منزلقات الضلال والانحراف .

5 -البحث والدراسة في تفسير القرآن الكريم في نور هديه – صلى الله عليه وسلم – وتوظيفه في الكشف عن مراده – سبحانه وتعالى – لا يزال خجولا ، والدراسات فيه تكاد تكون نادرة ، فعلى المهتمين والباحثين في التفسير وعلومه أفرادا ومؤسسات ؛ أن يعطوه حظه من العناية والاهتمام .

الحمد لله الذي هدانا له ذا ، وما كنا لنهتدي ؛ لولا أن هدانا الله ، اللهم كما وفقتنا فيه ؛ تقبله منا ؛ ووفقنا للعمل بمقتضاه ؛ إنك سميع قريب مجيب ، والحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع :

القرآن الكريم بروايةحفص عن عاصمالكوفي.

1 -إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ، ط9، (1393هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان – .

2 -البيان النبوي للدكتور محمد رجب البيومي ، ط 1 ، 1407هـ ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة – جمهورية مصر العربية – .

3 -التفسير النبوي للدكتور خالد عبد العزيز الباتلي ،ط 1، (1432هـ) ، دار كنوز إشبيليا، – الرياض – المملكة العربية السعودية – .

4 -في الحديث الشريف والبلاغة النبوية لمحمد سعيد البوطي ، ط 1، (1432هـ) ، دار الفكر ، دمشق – سوريا – .

5 -قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين بن علي الحربي ، ط 1، (1417هـ) ، دار القلم ، –الرياض – المملكة العربية السعودية – .